دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى

للأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

تمهيـــد :

لم أكلف بكتابة هذا البحث إلا في نهاية الشهر الماضي ، وكان على أن أكتبه خلال أيام قليلة حتى يمكن لسكرتارية المؤتمر أن تطبعه وتدرجه ضمن البحوث الأخرى . وفي وسعي أن أستجمع أفكاري حول هذا الموضوع خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة ، ولكن هناك أمورا وأعمالا علمية أخرى والتزامات كثيرة لا تحتمل التأجيل تتصل بعملي في إدارة الكلية التي أشرف بعمادتها جعلتني أتردد في قبول الكتابة في هذا الموضوع الهام تحت ضغط عامل الوقت .

ولكنني من ناحية أخرى أحسست بمسؤوليتي نحو هذا العمل الذي يعد نوعا من الجهاد في سبيل الله ، ولذلك اختلست بعض الوقت في زحمة أعمالي الأخرى لأكتب هذه السطور التي تعد بمثابة رؤوس موضوعات والتي أرجو أن يكون فيها بعض الفائدة ، وأن تكون إسهاما متواضعا في أعمال هذا المؤتمر الجليل ، وإن كنت أول من يدرك ما في هذا البحث من قصور وتقصير .

تحديـــد المفاهيـــم

يتحتم علينا في البداية أن نحدد بعض المفاهيم التي تعد مفتاحاً لهذا الموضوع . فعنوان البحث المطلوب يحمل بعض المفاهيم مثل «مؤسسات الدعوة» و«الغزو الفكري» و«الدور» الذي يمكن أن تقوم به هذه المؤسسات حيال هذا الغزو . وهذه أمور تحتاج إلى شيء من التوضيح والتحديد . فخطواتنا في مجال الدعوة يجب أن تكون محسوبة وموزونة ، ومفاهيمنا يجب أن تكون محددة ودقيقة . فنحن اليوم في عصر لا مجال فيه للارتجال أو التعميمات الغامضة .

مؤسسات الدعوة :

فماذا نعني عندما نتحدث عن مؤسسات الدعوة ؟

مؤسسات الدعوة مفهوم واسع يشمل وزارات الأوقاف والمساجد التي تتبعها وما

تقوم به من دور كبير فى التوعية الدينية ، وتشمل أيضا معاهد التعليم التى تعنى بالتكوين الإسلامى على اختلاف مراحلها ، وبخاصة الجامعية منها . ويدخل فيه كذلك إدارات الوعظ والإرشاد واللجان العليا للدعوة ، ولجان الشؤون الدينية بالمجالس النيابية والمجلس الأعلى العالمى للمساجد والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ولجان الشؤون الدينية بالأحزاب المختلفة وإدارات تدريب الدعاة ، ووسائل الإعلام الإسلامية مقروءة أو مسموعة أو مرئية مثل إذاعات القرآن الكريم والصحافة الدينية سواء كانت صحفا يومية أم أسبوعية أم مجلات أسبوعية أم شهرية أم دورية الخ . . . ، كما يدخل تحت مفهوم مؤسسات الدعوة أيضا المؤسسات الأهلية والجمعيات الدينية التى تعنى بالتوعية الدينية .

ويمكن تجاوزا أن يدخل تحت هذا المفهوم أيضا الجهود الفردية التطوعية فى مجال الدعوة إلى الله . ولكن هذه الجهود الفردية إذا لم تكن مؤهلة للقيام بدورها فى مجال الدعوة ، فإن خطرها أو ضررها سيكون أكثر من نفعها .

ومن أجل ذلك لا يجوز إغفالها لأنها يمكن أن تثير الكثير من النزاعات حول أمور شكلية فى الدين فتضر اكثر مما تنفع وتفرق بدل أن توحد .

وأخطر هذه المؤسسات جميعا هى المؤسسات التى تتولى التربية والتثقيف ابتداء من المراحل التعليمية الأولى حتى المراحل النهائية ، ويضاهيها فى الخطر والأهمية وسائل الإعلام لما لها من تأثير لا يقاوم فى صياغة أفكار الناس وتوجيه عقولهم .

ومؤسسات الدعوة هذه تستطيع أن تؤدى أجل خدمة للإسلام اذا تعاونت فيما بينها وقامت بتنسيق خططها وتوحيد جهودها . أما إذا تشاحنت فيما بينها وتنافرت خططها وتضاربت جهودها فإن هذا من شأنه أن يعود بالضرر البالغ على الدعوة الاسلامية بصفة عامة ، بل وينعكس أثره سلبيا على الإسلام ذاته .

الغزو الفكري :

أما مفهوم الغزو الفكري فإنه مفهوم قد استقر في الأذهان في معظم بلاد العالم الثالث على الرغم من عدم دقة إطلاقه . فالغزو يعني الإرغام والقهر . وهذا المعنى غير قائم إلا في بعض الصور التي يطلق عليها مفهوم الغزو الفكري. أما بقية صور ما يسمى بالغزو الفكري فتتم بأيدينا نحن وباختيارنا ، وهذا هو وجه الخطورة .

وبصفة عامة يمكن القول بأن مفهوم الغزو الفكري يقصد به كل التيارات الفكرية الهدامة الواردة من الغرب الرأسمالي أو الشرق الماركسي ، سواء تمثلت في نظريات فلسفية أو اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية أو سياسية أو دينية أو دراسات استشراقية أو غير ذلك من نظريات تتصل بحقل الدراسات الإنسانية على وجه الخصوص .

وقد تكون بعض هذه التيارات الفكرية قد فرضت بالفعل فرضا من جانب المستعمر على الشعوب الإسلامية إبان فترة الاحتلال لهذه البلاد ، مثل فرض النظرية العلمانية بالفصل بين الدين والدولة في مجال السياسة والاقتصاد وتنظيم المجتمع ، وازدواجية التعليم ، وما إلى ذلك من أمور أريد لنا دون إرادتنا أن نسير في تيارها. وقد يكون بعض هذه التيارات الفكرية قد جلب إلى بلاد المسلمين على أيدي مسلمين تثقفوا بالثقافات الغربية في الوقت الذي لم يكونوا فيه على دراية تامة بأمور دينهم العامة أو الخاصة ، وقد يكون بعض هذه التيارات قد جلب على أيدي مواطنين غير مسلمين يهمهم بالدرجة الأولى إضعاف الاسلام وتفتيت وحدته ـ وقد يكون بعض هذه التيارات الفكرية قد وجد لنفسه مرتعا خصبا وفرصة مواتية لدى بعض النفوس المقلدة للغرب في كل شيء من أبناء المسلمين تحت تأثير مركبات النقص وعقد التخلف التي تعاني منها. ولعل هذا الفريق هو الذي عناه المرحوم مالك بن نبي ـ المفكر الإسلامي الجزائري ـ حينما تحدث في بعض مؤلفاته عن أولئك الذين لازالت لديهم القابلية للاستعمار.

ولا يجوز إغفال الدور الذى تقوم به بعض وسائل الإعلام فى العالم الاسلامى فى نقل الكثير من هذه التيارات الفكرية الهدامة سواء أكان ذلك عن علم ودراية أو عن جهل وغفلة ، وسواء أكان ذلك بطريق مباشر أم غير مباشر . فإن ما تنقله وسائل الاعلام هذه مسموعة أو مرئية أو مقروءة يعمل عمله فى صياغة أفكار الشباب والأطفال على وجه الخصوص ، بل والكهول أيضا وينعكس اثره سلبيا على سلوكهم وتوجهاتهم .

مخاطر الغزو الفكرى :

بعد هذا التوضيح القصير نعود إلى جوهر الموضوع وهو الدور المنوط بمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى . ولكن قبل ذلك علينا أن نسأل :

ما أسباب الخوف من الغزو الفكرى الذى لجأ إليه الاستعمار بعد أن استحال عليه الوجود العسكرى فى البلاد التى كان يحتلها ويسيطر عليها ؟ .

إن القضية هنا تتصل اتصالا مباشرا بالضعف الذى يعانى منه العالم الإسلامى كله أو بمعنى اخر : إن الأسباب الحقيقية لهذا الخوف تكمن فى التخلف الذى يخيم على الشعوب الإسلامية .

وهذا التخلف واقع ملموس حتى وإن توارى خلف بعض مظاهر التقدم المادى فى بعض المناطق الإسلامية .

وغنى عن البيان أن الجسم الضعيف يكون أكثر تعرضا لخطر الإصابة بالأمراض الفتاكة من الجسم السليم ، فالأمة الإسلامية لو كانت قوية مرهوبة الجانب ورائدة فى مضمار التقدم والحضارة لما كانت هناك على الاطلاق مشكلة قائمة حول الغزو الفكرى وخطره على الإسلام ، فالإسلام ذاته قوى فى مبادئه وأصوله وأهدافه

وتشريعاته ، ولا يخشى عليه من أية تيارات فكرية مناوئة أيا كان خطرها وأيا كان مصدرها طالما وجد هذا الدين من أتباعه الفهم الصحيح لأهدافه وغاياته وتشريعاته. ولكن إذا افتقد الإسلام لدى أتباعه ذلك الفهم لضعفهم وانهيار عزائمهم وانحلال عرى وحدتهم فهنا يكون الخطر كل الخطر الذى يهدد كيانهم كله .

فالقضية إذن تدور حول ما يتعرض له المسلمون - نظرا لضعفهم - من مخاطر الغزو الفكرى الذى يحاول أن يحتويهم ويستولى على عقولهم ويصوغ لهم أفكارهم ويخطط لهم فى كل مجالات حياتهم حتى ينسوا دينهم الذى يراد إزاحته تماما من النفوس ، أو على الأقل يراد له أن يكون فقط مجرد مظهر خارجى يتمثل فى بعض المظاهر الدينية الشكلية التى لا تعنى شيئا. فالمستهدف فى النهاية هو الإسلام بوصفه يشكل العقبة الرئيسة أمام القوى الأجنبية التى تحاول السيطرة على المسلمين أو استنزاف خيراتهم.

فما دام القرآن يتلى بين المسلمين ومادام الإسلام حيا فى نفوسهم فمن المستحيل أن يأمن العدو أو يهدأ له بال أو يقر له قرار ، فالإسلام يرفض ولاية الأجنبى على المسلمين وفى الوقت نفسه يغرس العزة فى نفوس المؤمنين . ومن هنا تحاول شتى التيارات الفكرية الوافدة أن تصفى أدمغة المسلمين من المحتوى الحقيقى للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر .

وإن نظرة عابرة على بعض هذه التيارات ترينا بوضوح مدى الجهود التى تبذل فى سبيل إفراغ الإسلام من مضمونه واختزاله إلى مجرد طقوس شكلية لا روح فيها ولا حياة ، أو محاولة طمسه كلية ومحوه من العقول والقلوب .

فالاستشراق مثلا له أسلوبه فى التشكيك فى الإسلام جملة وتفصيلا . . جملة بالادعاء بأنه دين مأخوذ من الديانات السابقة عليه ولا جديد فيه ، وتفصيلا بالتشكيك فى القرآن الكريم سواء فى مصدره أم فى نصه ، وفى الحديث النبوى

وروايته وفي الشريعة الإسلامية وأصالتها ، وفي الفلسفة الإسلامية وخصوصيتها ، وفي الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي بصفة عامة ، وكذلك تأجيج نار النزاعات والانقسامات بين الفرق الإسلامية وإحياء النزعات القديمة مثل الفرعونية والفينقية والفارسية وغيرها من انتماءات قديمة يراد لها أن تغطي على انتماء المسلمين لإسلامهم وتاريخهم وحضارتهم ، كما تعمل هذه التيارات على إضعاف اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم ، وذلك بتشجيع اللهجات العامية المحلية والتعصب لها أو الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، إلى آخر تلك الخطط المشبوهة والمفضوحة .

ومن ناحية أخرى تعمل التيارات المادية الالحادية من مذاهب وضعية أو ماركسية أو وجودية - تعمل على محو الدين تماما من النفوس وجعل الانسان عبدا أسيرا لأنانيته وحاجاته المادية ، فلا مجال هناك لما يسمى بالروح أو الدين ، فذلك أمر يعد في نظر هؤلاء تخلفا ورجعية .

وهكذا تأخذ المفاهيم معاني معكوسة . فالمادي الماركسي - الذي اتخذ إلهه هواه - يصف نفسه بالتقدمية ، أم المتدين المتمسك بدينه الملتزم بآدابه فإنه يوصف بالرجعية .

وهكذا تدخل علينا كل هذه التيارات الفكرية الغازية من خلال الضعف الذي يعاني منه المسلمون لا من خلال ضعف الاسلام ، ولكن إذا ضعف المسلمون وأصبحوا كالجسد الهزيل الذي لا يقوى على مقاومة ميكروبات الأمراض التي تغزو جسمه فإن الخطر ينتقل بالضرورة إلى الإسلام ذاته .

وهنا تبرز بين المسلمين أنفسهم شتى التفسيرات التي تنحرف بالإسلام عن مقاصده وغاياته ، وتتدخل هنا الأهواء والأغراض لتميل بالدين حسبما تشاء ، وتظهر النزاعات والانقسامات بين المسلمين من أجل أمور ثانوية . ويساعد العدو

بالطبع على إشعال نار هذه الانقسامات بهدف ضياع وحدة المسلمين وتفكيك عرى التماسك بينهم ، وبذلك يصل إلى ما يريد بأيدينا نحن .

دور مؤسسات الدعوة :

إن الدور الذى يجب على مؤسسات الدعوة أن تنهض للقيام به حيال مخاطر الغزو الفكرى ينبغى أن يسير فى خطين متوازيين فى وقت واحد : أولهما يتمثل فى تحصين الجبهة الداخلية ، وثانيهما يتمثل فى المواجهة المباشرة للغزو الفكرى . وهذا إجمال نفصله فيما يلى :

أولا : تحصين الجبهة الداخلية :

يقتضى تحصين الجبهة الداخلية استنهاض عزائم المسلمين لنفض غبار التخلف عن كواهلهم وحثهم على المشاركة الايجابية فى صنع التقدم والحضارة على أرضهم عن طريق العلم والدراسة والفهم ، حتى لا يظلون ـ كما يراد لهم ـ مجرد مستهلكين لمنتجات الغرب . فالامر المؤسف حقا أن العالم الإسلامى ـ الذى حباه الله رقعة تحمل فى باطنها كل خيرات الدنيا ـ لا يزال يعتمد فى قوته على الدول الاجنبية بنسبة ستين فى المائة ، وهذه الدول إذ تورد له قوته تورد له فى الوقت نفسه أفكارها وقيمها وتقاليدها وطرائق معيشتها ، ومعروف أن من لا يملك قوته لا يملك قراره .

ومن أجل ذلك يجب أن تقوم مؤسسات الدعوه بتنشيط الدافع الذاتى لدى المسلمين وإبراز القيم الإسلامية المضيئة مثل : قيم العمل والوقت والحق والخير والجمال ، وترسيخ هذه القيم فى النفوس .

فلن ينفعنا أن نكتفى بسرد تاريخنا المشرق والتغنى بما كان لنا من امجاد سابقة ، فنحن لن نكون جديرين بالانتساب إلى هؤلاء الأسلاف العظام إلا إذا كنا

مثلهم رجالا نعمل ونبنى الحضارة والتقدم ونتسلح بالعلم والمعرفة والا فلا خير فينا .

ويحضرنى فى هذا الصدد ما يروى من أن شكيب أرسلان قد زار جمال الدين الافغانى ذات مرة عندما كان شبه أسير فى عاصمة الخلافة العثمانية، وحكى له ما يروى من أن العرب عبروا المحيط الاطلنطى قديما واكتشفوا أمريكا قبل اكتشاف الأوربيين لها فيرد عليه جمال الدين قائلا :

«إن المسلمين اصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة .

إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[1] .

فمن الضرورى أن توجه مؤسسات الدعوة جهودها ـ كل منها بأسلوبه وطريقته الخاصة ـ لا يقاظ الهمم لدى كل فئات الشعب وحفز العزائم للعمل على انتشال العالم الإسلامى من الركود الذى يحيط به ـ وهذا أمر يتطلب وضع خطة للتنمية الدينية والأخلاقية على غرار ما تقوم به الدول من وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية وذلك من أجل ترسيخ المفاهيم والقيم الإسلامية فى النفوس لتنطلق إلى العمل بهمة ونشاط . فهذه التنمية الدينية والأخلاقية هى الأساس الحقيقى لكل أنواع التنمية الأخرى اقتصادية كانت أم اجتماعية أم تربوية أم سياسية الخ . . .

والغريب أن الدول الإسلامية تضع باستمرار خططا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية دون أن تبذل أى جهد حقيقى فى سبيل وضع خطة للتنمية الدينية

والأخلاقية فى حين أن هذه هى الركيزة الأساس لتلك ـ فتربية الضمير وتوعية العقول بقيم الإسلام وآدابه يدفع العامل إلى العمل بجد وإخلاص مراعيا ضميره وربه ، فيزيد الانتاج وتتنافس العقول فى سبيل الخير للمجتمع الإسلامى .

ومن ناحية أخرى فإن التربية على أساس القيم والمبادىء الإسلامية . والتوعية الدينية بأسس الإسلام وغاياته يشكل حصانة قوية ودعامة أساسا تستطيع أن تواجه أية تيارات فكرية أجنبية ـ ومن هنا ، من تقوية الجبهة الداخلية الإسلامية وتوعيتها ، نحصن المسلم من الوقوع بسهولة فى حبائل الغزو الفكرى .

ويجب أن يبدأ هذا التحصين من مرحلة الطفولة ، وذلك بغرس الانتماء الحقيقى إلى الاسلام فى نفوس النشىء وإبراز صور البطولات الإسلامية أمام عينه وقلبه ، وصقل مواهبه وتنمية مداركه فى إطار من أخلاق الإسلام وآدابه . ولابد أن تتحقق أمامه القدوة الحسنة التى تجعله يتعايش مع الإسلام ممثلا فى نماذج حية لا فى مجرد التلقين بكلام نظرى . فإن من أخطر الأمور فى مجال التربية أن يجد الطفل فى مربيه أو فى والديه والمحيطين به ذلك الانفصام الممقوت بين القول والفعل . فإذا نهى المربى عن خلق لابد أن يكون هو نفسه منتهيا عنه ، وإلا حق عليه قول القائل :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك اذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ومن الضرورى أن يستمر التحصين المطلوب فى جميع مراحل التعليم .
ومن هنا تأتى أهمية تدريس الثقافة الإسلامية فى الجامعات الاسلامية حتى لا يترك الطالب فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل حياته نهبا لشتى التيارات الفكرية دون أن تكون لديه حصانة كافية من دينه وتراثه وقيمه ، ودون أن يكون لديه الانتماء الراسخ لعقيدته وتاريخه .

ثانيا : المواجهة المباشرة :

اما عن الجانب الثانى من المهمة الأساس لمؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى ، والذى سبق أن أشرنا إلى أنه ينبغى أن يسير فى الوقت نفسه مع الجانب الأول فإنه يتمثل فى المواجهة المباشرة للتيارات الفكرية الغازية ، ونعنى بذلك ضرورة الدراسة الواعية لشتى التيارات الفكرية ، وإدراك أسسها وأهدافها ووسائلها حتى يمكن نقضها وتفنيدها وحماية المسلمين من أخطارها . ولنا فى أسلافنا مثل يحتذى ، فقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة - التى كانت تمثل لونا من ألوان التحدى للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة - كانت حافزًا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة . وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه . فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضما دقيقا واستوعبها استيعابا تاما ، ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها . فالمواجهة إذن كانت مواجهة فكرية .

وكأن التاريخ يعيد نفسه . فالحرب الآن بين الاسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار ، والمعركة معركة فكرية . ولهذه المعارك أدواتها التى يجب التسلح بها . فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة أية معركة حربية أيا كان حجمها .[2].

ومواجهة هذه التيارات الفكرية مواجهة حاسمة لا تكون إلا بدراستها دراسة واعية . «فلا يقف على فساد نوع من العلوم - كما يقول الإمام الغزالى - من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم . . . وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا»[3].

وقد طبق الإمام الغزالى هذه القاعدة على نفسه حين تعرض بالنقض والتفنيد للأفكار الفلسفية اليونانية فى عصره وللأفكار الباطنية وغيرها من تيارات فكرية. وقد

فعل الإمام ابن تيمية الشيء ذاته حين تعرض بالنقض والتفنيد للتيارات الفكرية الأجنبية في عصره.

وإذا كان أسلافنا العظام قد فعلوا ذلك منذ قرون فنحن اليوم في نهاية القرن العشرين أولى بأن نفعل ذلك. فعصرنا لم يعد يحترم غير منطق العلم ومخاطبة العقل والاقناع بالحجة والبرهان.

ومن هنا تأتي ضرورة الدراسة الواعية لكل ما يدور في عالم اليوم من أفكار ونظريات ونقدها في موضوعية، وعدم اللجوء إلى إلقاء الكلام على عواهنه والإغراق في التعميمات التي لا تجدي فتيلا.

وهناك نقطة هامة وضرورية قبل التوجه بالنقد إلى الآخرين، وهي ضرورة ممارسة النقد الذاتي أولا حتى نعرف مواقع أقدامنا، ونكون على وعي بقصورنا وتقصيرنا في حق أنفسنا وفي حق ديننا، وأن نقوم بتشخيص عللنا وأمراضنا الاجتماعية والفكرية والسلوكية تشخيصا حقيقيا حتى يمكننا أن نقوم بعلاجها علاجا سليما.

ولا يكفي أن نرفع أصواتنا بين حين وآخر بوضع كل ما نعانيه من علل وأمراض وتخلف وانحدار على شماعة الاستعمار والصهيونية، ونكتفي بذلك وكأننا قد قمنا بحل مشاكلنا، وأدينا واجبنا، وعرفنا السبب الحقيقي لكل ما نعانيه من تخلف، إن هذا السلوك هو التخلف بعينه وهو العجز بعينه.

والذي يجب أن ندركه جيدا هو أن التيارات الفكرية الغازية تستمد قوتها من ضعفنا، ووجودها نفسه في بلادنا وبين ظهرانينا مشروط بعجز العالم الإسلامي عن معرفة ذاته. ويوم أن يعي العالم الإسلامي ذاته وينهض من عجزه ويلقي عن كاهله أثقال التخلف الفكري والحضاري - يومها لن تجد هذه التيارات الفكرية الغازية مجالا للظهور أو الانتشار بيننا.

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية فإن علينا من ناحية أخرى أن نتحرر من عقدة التخلف التى تسيطر علينا فى جميع مناحى حياتنا ، والتى تسد على الكثيرين منا منافذ الأمل فى الخروج من أزمتنا . فقد تحررنا من الاستعمار العسكرى ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار . ولهذا فإن نظرة الكثيرين منا لكل ما يأتى من الغرب هى نظرة التقدير والإكبار ، حتى وإن كان هذا الذى يرد إلينا متمثلا فى أزياء غريبة عن أذواقنا وتقاليدنا ، أو شرائط تحمل ألحانا ساخبة وأصواتا مزعجة تصرخ بعنف يحطم الأعصاب ، ونعدها فنا نتلقفه ونحاكيه لأنه قادم من الغرب المتقدم ، غافلين عن الأسباب التى أفرزت فى الغرب مثل هذه الظواهر . وهى أسباب غريبة عنا بكل تأكيد[٤] .

ويبدو أن «عقدة الحواجة» والتقدير الفائق لقدرات الأجنبى أمر ضارب بأطنابه فى بعض الجوانب من تاريخنا . فقد حكى الجاحظ فى كتاب البخلاء الحكاية التالية عن طبيب عربى مسلم هو (أسد بن جانى). يقول الجاحظ «وكان طبيبا فأكسد مرة» فقال له قائل : السنة وبيئة ، والأمراض فاشية وأنت عالم وذلك صبر وخدمة ، وذلك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة فإنى عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لابل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب .

واسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليب ومراسل ويوحنا وبيرا . وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون : أبو عيسى ، وأبو زكريا، وأبو ابراهيم . وعلىّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون علىّ رداء حرير أسود . ولفظى عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديابور»[٥] .

وكل هذه وغيرها شواهد تؤكد لنا ضرورة التحرر من مركبات النقص وعقد التخلف حتى نكون على ثقة بأنفسنا ، والنقد الذاتى من ناحية أخرى كفيل بفتح عيوننا على كل عيوبنا. وهذه الخطوات تمثل شروطا ضرورية للدخول فى المواجهة

العلمية التي على مؤسسات الدعوة أن تضطلع بها، وبخاصة تلك المؤسسات المعنية بتكوين الدعاة أو التخطيط لتكوينهم. وفيما يلي بعض الأفكار العملية المتواضعة في مجال المواجهة الفكرية .

خطوات عملية :

نظرا لأن المواجهة اليوم - كما سبق أن أشرنا - هي مواجهة على المستوى الفكري ونظرًا لأن التيارات الفكرية الوافدة تتخذ لنفسها صفة العلمية والانسانية والتقدمية والحضارية الخ . فلابد لنا من أن ندخل إلى هذا الميدان ونحن مسلحون بنفس الأسلحة الفكرية التي تستخدمها هذه التيارات أو التي تدعي أنها تستخدمها حتى يمكن كشف زيفها على علم ومن بينة . وهذا يقتضي اتخاذ بعض الخطوات العملية ومنها على سبيل المثال ما يأتي :

١ - إنشاء مركز علمي للدراسات الاستشراقية :

فليس من المعقول ولا من المقبول أن يكون هناك في أوربا وأمريكا ما يقرب من مائة معهد للإستشراق تقوم كلها بدراسة عقائدنا وحضارتنا ولغتنا وتاريخنا كله ، ولا يوجد لدينا على امتداد العالم الإسلامي مركز بحوث واحد لدراسة الكم الهائل الذي انتجته المؤسسة الاستشراقية عن ديننا وحضارتنا ، وحسب بعض الاحصاءات بلغ عدد المؤلفات التي أصدرها المستشرقون عن الشرق منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين ألف كتاب . وفي الكثير منها طعن في ديننا وتشكيك في قرآننا وهجوم على نبينا وهدم في حضارتنا وتراثنا كله «ونحن عن هذا كله غافلون اللهم الا بعض الجهود الفردية هنا وهناك .

ولا يخفى على أحد أن هناك فريقا من المثقفين في العالم الإسلامي معجبين بالدراسات الاستشراقية ، ومنهم من يتقلدون مناصب الأستاذية في الجامعات الإسلامية ، ويقومون ببث أفكارهم بين الطلاب في قاعات الدراسة .

٢ - مركز علمي لدراسة التيارات المعاصرة :

وإنشاء هذا المركز يعد ضرورة تحتمها المصلحة الاسلامية للتعمق فى فهم هذه التيارات ودراستها ثم إصدار الدراسات الرصينة الواعية التي تأتي على هذه المذاهب من القواعد بأسلوب علمي مقنع يكشف ما فيها من زيف وبطلان ، الأمر الذى يحملها على الفرار من الساحة الفكرية فى بلاد المسلمين .

٣ - موسوعة إسلامية عالمية :

هناك ضرورة ملحة ليس فقط على مستوى العالم الاسلامي ، بل أيضا على المستوى الفكرى العالمى لإخراج موسوعة إسلامية عالمية باللغة العربية وثلاث لغات أوربية على الأقل تعرض الإسلام عرضا علميا وبطريقة موضوعية تنأى عن الخلافات المذهبية الضيقة وترد فى الوقت نفسه على المزاعم التي تثار ضد الاسلام ، وتحل هذه الموسوعة محل دائرة المعارف الاسلامية التى أخرجها المستشرقون ولا يزالون يقومون بإخراج الطبعة الثانية منها ، أو على الأقل تكون بجوار هذه الدائرة ، والباحثون لدينا يعتمدون على تلك الدائرة الاستشراقية ، وهم معذورون ، فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا حتى لا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية ، وربما معادية لافكارنا فلا نلومن حينئذ الا انفسنا .

وهذا العمل المطلوب لاخراج موسوعة إسلامية بأقلام المسلمين يقتضى تكوين هيئة علمية عالمية للموسوعة تضم خيرة العلماء من جميع أنحاء العالم الاسلامى تتوفر على إخراج هذا العمل العلمى الضخم من منطلق الانتماء للإسلام وحده والعمل من أجله لا من منطلق انتماءات إقليمية ضيقة ، ولابد من أن تتوفر لهذه الهيئة شتى الإمكانات المادية لتقوم بعملها على خير وجه .

وعلى مؤسسات الدعوة أن تتبنى الدعوة لجمع التبرعات من جميع أنحاء العالم الإسلامى لتمويل هذا العمل الإسلامى وتمويل المركزين البحثين المشار إليهما قبل ذلك . فهذه الموسوعة وكذلك الدراسات التى تصدر عن هذين المركزين

ستمد الدعاة برصيد علمي كبير يعينهم على القيام بمهمتهم في مجال الدعوة الإسلامية على أفضل الوجوه ، ويجعلهم قادرين على مواجهة شتى التيارات الفكرية .

٤ - جهاز عالمي للدعوة الإسلامية في الخارج :

وإذا تحدثنا عن مؤسسات الدعوة ودورها حيال الغزو الفكري في بلاد المسلمين فلا يجوز أن ننسى أن دور مؤسسات الدعوة يجب أن يمتد ليشمل الأقليات الإسلامية في كل مكان . فهذه الأقليات تتعرض أكثر من غيرها لمخاطر الغزو الفكري والمحو المنظم لعقيدتها وذاتيتها وارتباطها بتراثها ولغتها وتاريخها كله ، وبخاصة تلك الأقليات التي تعيش في البلاد الشيوعية .

وعلى الرغم من وجود الملايين العديدة من المسلمين في أوربا وأمريكا فإن الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين هناك والاجيال القادمة يشبون وهم لا يعرفون من لغاتهم الأصلية شيئا . وهؤلاء إذا أرادوا التعرف على إسلامهم لا يجدون أمامهم - في أغلب الأحيان - إلا كتب المستشرقين في كل مكان فيستقون معلوماتهم من هذه الكتب ومعظمها تشكيك في الإسلام . ومن ناحية أخرى فإن وجود هذه الملايين من أبناء المسلمين في البلاد التي تصدّر لنا التيارات الفكرية المناوئة لفكرنا وديننا يدعونا لأن نهتم بهم اهتماما مضاعفا .

وهذا يتطلب إنشاء جهاز عالمي للدعوة الإسلامية في الخارج ، يقوم بالدعوة إلى الإسلام من ناحية ويحمي المسلمين بالوراثة من ناحية ثانية، ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثالثة ، ويقتضي ذلك من بين أمور أخرى إصدار سلسلة كتب إسلامية باللغات العالمية لتصحيح التصورات الخاطئة عن الإسلام في الأذهان وتقديم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية وبخاصة مشكلات المسلمين في بلاد الحضارة الغربية .

كما ينبغى أن يهتم الجهاز المقترح بنشر لغة القرآن بأحدث وسائل التعليم حتى يظل ارتباط المسلم فى هذه البلاد موصولا دائما بقرآنه وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وبعد :

فليس هناك شك فى أن تنفيذ مثل هذه المقترحات وغيرها من خطوات عملية فى هذا المضمار سيكون له مردود عظيم على الإسلام والمسلمين فى الداخل والخارج ، وسيشد من عزائم الدعاة ويوسع آفاقهم ويجعلهم أكثر قدرة على مواجهة المواقف الفكرية المختلفة فى ثبات وقوة ، ويجعل لهم الغلبة والنصر فى المعارك الفكرية أيا كان حجمها وأيا كانت الجهة التى تقف وراءها .

والأمر الجدير بالذكر فى هذا المقام هو أن الانسان المعاصر فى عالم اليوم قد بدأ يبحث عن الثوابت فى مجال الدين والعقيدة . وإذا قام المسلمون بهذا العمل العلمى الضخم بشتى اللغات الحية فإنهم سيقدمون بذلك أجل خدمة للاسلام فى القرن الخامس عشر الهجرى ، ويقدمون للإنسان المعاصر المتعطش للمعرفة والباحث عن الحقيقة النور والهداية . وهناك مؤشرات قوية ـ كما يقول بعض المراقبين المطلعين على التطورات الفكرية فى العالم[1] توحى بأن القرن الحادى والعشرين يمكن أن يشهد تحول نصف سكان الكرة الأرضية إلى الإسلام لما فى هذا الدين من عوامل جذب كثيرة بالنسبة للإنسان المعاصر ، شريطة أن ينهض المسلمون بواجبهم العلمى فى عرض دينهم وعقائدهم بالأسلوب الذى يقنع الإنسان المعاصر .

وليس ما نقوله مجرد أمنيات أو أحلام . فمن منا كان يتصور قبل الحرب العالمية الثانية أن يكون للاسلام حضور قوى ومؤثر فى بلاد غرب وشمال أوربا ؟ .

ولكن المعجزة قد حدثت ، وارتفعت عشرات المآذن وأقيمت مئات المساجد في بلاد غرب وشمال أوربا ، وأصبح للإسلام وجود بالملايين من أبنائه في كل أنحاء أوربا وأمريكا ، الأمر الذى حدا بالبعض إلى القول بأن الصحوة الإسلامية أو إشراق شمس الإسلام مرة اخرى سيكون من أوربا . فالاسلام الذى بدأ غريبا فى مكة ينطلق اليوم مرة اخرى من بلاد الغربة فى الطرف الآخر من العالم . وقد نتفق أو نختلف مع هذا القول ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو تزايد أعداد المسلمين باستمرار فى تلك البلاد ، الأمر الذى اضطرت معه كثير من هذه البلاد إلى الاعتراف رسميا بالاسلام والاعتراف بكل ما يترتب على هذا الاعتراف من حقوق للمسلمين هناك .

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٥]

صدق الله العظيم

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين ص ١٠٢ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى للدكتور محمود حمدى زقزوق ص ١٢٤ (سلسلة كتاب الأمة).

(٣) المنقذ من الضلال للغزالى تحقيق د / عبدالحليم محمود ص ١٠٣ القاهرة

(٤) انظر كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٥) المرجع السابق ١٢٨ وما بعدها

(٦) د رشدى فكار . فى محاضرة له بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة فى ١٩٨٧/٣/٢٩م

(٧) سورة يوسف آية ٢١ .